بريان

تتمة مقالة اميل لدوغ

اخذت شهرة بريان العالمية في خدمة السلام تذيع من نحو خمس سنوات او ستّ فقط ، مع انهُ كان قد انقضى عليهِ خمسون سنة وهو يدعو الناس الى السلام والتساهل ونبذ التعصب القومي. ومع ذلك فليس هو مبدع ميثاق لوكارنو ولا خالق فكرة الاتحاد الاوربي. وانما كان في السياسة العالمية مثل اديسن في ميدان الاستنباط ، يتناول المسائل كما هي ويعالجها بحماسة نادرة وكثير من بعد النظر وسعة الخيال حتى اصبح اسمه مرادفاً « للسلام » . ذلك انهُ لما حذقت الضمانة الانكليزية الاميركية لسلامة فرنسا من معاهدة فرساي ، لشدة معارضة مجلس الامة الاميركي ، اخذ رجال السياسة في فرنسا ، وبريان في طليعتهم ، يسعون سعياً حثيثاً لابداع بدل لها . فلما التأم مؤتمر «كان» سنة ١٩٢٢ حاول بريان ان يستميل بريطانيا لضمانة سلامة فرنسا لقاء تساهل في موضوع التعويضات الحربية المطلوبة من المانيا ، فعارضهُ في ذلك بوانكاره معارضة شديدة ، فعاد الى باريس والقى خطبة في مجلس النواب محاولاً ان يسوّغ بها عملهُ ، وكان الصق اصدقائهِ به لا يدرون هل يستقيل او لا يستقيل . وكان في اثناء القاء الخطبة يراقب النواب في روحاتهم وغدواتهم ، ويتبيّن نياتهم في ملامحهم ، ويصغي الى تصفيقهم الفاتر فانهى خطبتهُ بهذه العبارة المفاجئة : « كل هذا كان برنامجي . واذ ارى انهُ لم ينل موافقتكم فانني مستقيل »

ولما عاد فتقلّد زمام الحكم في سنة ١٩٢٥ وجد بين اوراق سلفهِ «هريو» وثيقة المانية كان قد مضى عليها شهور وفيها مشروع ميثاق بين المانيا وفرنسا وبلجيكا وايطاليا تضمن بموجبهِ سلامة فرنسا والمانيا من اي هجوم على احداهما . وكان الميثاق تامًّا من جميع وجوههِ ، فاخذه الى لوكارنو واقنع الدول بقبولهِ . والطريقة التي جرى عليها في لوكارنو حديثاً وسلوكاً كسبت لهُ من جماهير الناس اسم « الفرنسي المسالم العظيم » . ولم يكن سبب فوزه الشعورُ الانساني الذي يساور المفاوضَ اذ يسمعهُ يقول « انا » في حين ان السر اوستن تشمبرلين لا يستطيع الاّ ان يقول « حكومة جلالة الملك » بل كان عطنهُ وانطلاقهُ الصحيح من القيود التي تكبل العقل وتضيق افق النظر . ففي بلدة اسكونا التي اقطنها قال بريان مرة لمستشار المانيا « انت المانيا وانا فرنسي . وعلى ذلك فلا بد من اختلافنا . ولكنني استطيع ان اكون فرنسيًّا واوربيًّا محبًّا لصالح اوربا في آنٍ واحد . وانت تستطيع ان تكون المانيًّا واوربيًّا محبًّا لصالح اوربا في آنٍ واحد . ولا يصعب على اوربيين محبان صالح اوربا ان يتفقا»

لقد انقضى علينا نحن الكتّاب والشعراء الحق على ضفتي نهر الرين احدى عشرة سنة ونحن نقول الكلام نفسه فلم يجرؤ رجل من رجال السياسة على الاعراب عن شعورنا حتى فعل ذلك بريان . من ذلك اليوم ، اتسعت آفاق عطفه فلما عقد اتفاق لوكارنو ، اكتشف لغة جديدة اذ قال : « لقد تكلمنا لغة اوربية » وهي لغة جديدة يجب ان نتعلمها » ولما عاد الى باريز حاملاً غصن السلام في يديه ، وخرجت باريس تستقبله قال لمن حوله على المحطة « لقد استعدتُ صباي » !

ألا يتضح كيف اقبل بريان ، وهو شيخ عدا الستين ، على فكرة السلام ، يكافح في سبيلها كفاح الاحداث المتحمسين لها المتعصبين في سبيلها ، كفاحاً لم يرَ اصدقاءه ما يماثله في اي دور من ادوار حياته السياسية ؟ انهُ بعد تنقله السياسي بين الحكومات الفرنسية ، وبعد ما قضى ساعات وحيداً يقذف زورقهُ الصغير ويصيد الاسماك من الانهار والجداول ، ويبحث في قرارات ضميره متأملاً ما صارت اليه احلام شبابه ، اكتشف اخيراً العبارة التي تمتزج وحياتهُ ، وعزم ان يدافع عن الفكرة التي تحتويها بكل ما لهُ من المكانة ، في فرنسا ووراء حدودها ، عازماً ان يحقق ما كان يدعو اليه في صباه . اصغى اليه وقد ارتقى المنبر في مجلس الشيوخ يدافع عن سياسته في لوكارنو قال : — « ما هذا ؟ الخالة ! هذه الحال ؟ الخالة ! اليجب علينا ان نخاف دوماً نشوب حرب بين فرنسا والمانيا ؟ اليجب على هاتين الامتين ان تفكرا دوماً في السلاح والتسلّح ، سرّاً او جهاراً ؟ حروب جديدة — اهذا ما تدعونه مستقبلاً ؟ اذهبوا الى مدنكم ، وسيروا في شوارعها ، وزوروا الناس في بيوتهم ، وتحدثوا الى الفلاحين ، فكل انسان في كل مسلك من مسالك الحياة يطلب السلام »

ولما أمضى اتفاق لوكارنو في لندن قرأ بريان ، والانفعال بادٍ في اساريره ، رسالة وردتهُ من والدته جاء فيها « اصبح لوالدتك ان تتمنى لك خيراً . لانني الآن استطيع ان انظر الى اولادي من دون ان يعروني الهلع . واخيراً استطيع ان احبهم حبّاً يكملهُ التأكد من سلامتهم » . وتلا ذلك مناقشات في مجلس الشيوخ ولجانه فاضطر بريان الكهول المتراخي ان يقضي ٣٦ ساعة من دون انقطاع تقريباً ، يدافع عن نفسه . وفي صباح احد الايام ، اذ علم ان ثمة محاولة لقلب وزارته اعتلى المنبر وقال : « لم انظر في حياتي نظرة الجزع الى ذلك الباب . أما اليوم فاني اتمسك بالسلطة بكل قواي . فاذا خذلتموني اليوم أزلتم بالبلاد كارثة » . فكان في صوته رنة رسول . وابرم المجلسان الاتفاق

فلما آن الاوان لانتظام المانيا في سلك جمعية الامم سنة ١٩٢٦ ظهرت في الصحف الوطنية الفرنسية مقالات كلها تهديد ووعيد لبريان . واذ كان نائماً في عربة القطار الذي اقلهُ الى جنيف ، حدث اصطدام فتكسر زجاج نافذة ، فظن الناس ان مجرماً يحاول اغتيال الرئيس ، ولكن القطار لم يقف ، وفي الصباح التالي ثبت ان بعض قضبان الحديد الناتئة من عربة شحن صدمت القطار وكسرت الزجاج . كل راكبي القطار خرجوا في ملابس نومهم مذعورين يسألون

ما الخبر الا بريان ، فانه لما وصل الى جنيف سأل عما حدث بالامس . ذلك انهُ كان ذاهباً لتأدية رسالة خير لا يخشى فيها خوفاً ولا لوماً . وبعد بضعة ايام ، وقف على منبر جمعية الامم في جنيف وخطب قائلاً : « لقد قضينا على الحرب بيننا ونزعنا الوشاحات السود وازلنا بواعث الالم . ولن نسمح بعد اليوم بان يكون سفك الدماء حاكماً فاصلاً في ما يختلف عليهِ . لنا الآن قاضٍ يحكم بالعدل . ابعدوا المدافع . افسحوا المجال للتفاهم والتحكيم والسلام »

وبعد بضعة أيام تناول بريان وشترزمان طعام الافطار في بلدة «توازي» على مقربة من جنيف فكانت كلمات بريان الساذجة وأخلاصهُ الجمّ لقضية السلام سبباً لنزول هذا الاجتماع البسيط بين الاجتماعات السياسية الخطيرة في تاريخ اوربا بعد الحرب . هنا اجتمع رجلان سياسيان من امتين متعاديتين ، فجعلا يتحدثان كانهما شاعران ملهمان محلقان فوق الغيوم ، يحاولان ان يقنعا بانحسن النية وصفائها يذللان كل العقبات . ومن الغريب ان ترى رجلين كبريان وشترزمان يختلفان نشأة وطبعاً اختلافهما مظهراً ووطناً ، يستطيعان ان يصلا الى تفاهم ما — وهو ما كان يحسب مستحيلاً . ولكن خيالها حوّل كلاً منهما من سياسيّ عاديّ ورفعهما الى مستوى رجال السياسة البناة . فسرت ، على أثر اجتماعهما ، هزّة في شعوب ، اوربا ، اذ تبينت شعاعة من النور يبعثها في نفوس الناس ، خيال رجل فرد

بعيد ذلك عقد مؤتمر لشوّهي رجال الحرب فاجتمع مندوبون من كل الامم في جنيف وقاموا بمظاهرة سلمية دعاية للسلام ، فاقترب رجل اعمى واكتشف من بريان وخاطبهُ قائلاً . «ياسيدي . لا تقف عند حدّ في عملك . ان اربعة ملايين من الرجال بكمٌ لا يستطيعون الكلام . وانا هنا واقف اتكلم باسمهم . امضِ في عملك يا سيدي » . ولما سمعتُ بريان يروي هذه القصة ، رأيت الذكرى تبسط الفتام على وجههِ ثم تلألأت عيناه بشراً وطفح وجههُ بالنور

وليس هنا محال البحث في «عهد كيلوغ بريان» ومشروع «الولايات المتحدة الاوربية» وانما نريد ان نقول ان بريان كان السياسيّ الاوربي الاول في المائة سنة الماضية الذي تجرأ وهو في منصب رسميّ ان يقول ما فاه بهِ من منبر جمعية الامم في خريف سنة ١٩٣٠ «ما زلت احمل تبعة شؤون بلادي ففرنسا لن تشهر حرباً » . فقامت عليه قيامة الصحف الوطنية المتطرفة تحاول خذله في مجلس النواب ولكن قوله هذا في نظري اشبه شيء بدرة من درر « مرقص اوريليوس » الامبراطور الفيلسوف

هل اراد بريان ان يكون رئيساً للجمهورية ؟ لما اشار عليهِ بعض اصدقائهِ بترشيح نفسهِ لانتخاب الرآسة ، اعترضت ، طائفة كبيرة من احرار الفرنسيين لان فرنسا لم تنتخب للرآسة في خلال الستين سنة السابقة رجلاً سياسيًّا من الطبقة الاولى . اما الرئيس بريه — وهو من اقدر الرؤساء الذين تولوا المنصب في تلك الفترة — فتخلى عن المنصب قبل انتهاء المدة . واما بوانكاره فقال لدى خروجهِ من الاليزه « لقد اضعت سبع سنوات » . لذلك لم يشأ الفرنسيون

ان يروا بريان السياسي العامل منزوياً في الاليزه معتزلاً السياسة الحزبية ملتفتاً بسمو

ولكنهُ بعد ما رفض ان يتقدم لانتخاب الرآسة ، مال الى الاخذ بما سمعهُ من اصدقائهِ لما رأوا ما اعترى نفوذه من الضعف في مجلس النواب فظنوا ان سبع سنوات في مرفق الرآسة الامين تحفظهُ من مخاطر العاصفة التي يثير بها الجوّ السياسي

ولم يخطر لاحد حينئذٍ ان يشك في امكان فوزه . الم يكن اشهر الفرنسيين واحبّهم الى الناس . الم يشعر في مساعيهِ السلمية بأن الامة تؤيده من اقصاها الى اقصاها ؟ ماذا يستطيع محترفو السياسة ان يفعلوا في وجه تأييد كهذا التأييد ؟ لذلك اقتنع بريان بقول المريدين ولم تأخذه ريبة ما في انتخابهِ . ومع شدة معرفتهِ بالطبيعة البشرية ، وفهمهِ للتيارات السياسية في المجلس الفرنسي ، لم يدرك ان الغيرة منهُ كانت الباعث على ما وُجّه اليهِ من الطعن والثلب في الصحف . ولا تنسَ ان الشعب الفرنسي لا ينتخب الرئيس بل النواب والشيوخ . وفي هذا يذكرنا بريان بسمارك ، فان بسمارك لم يكن يعتقد قط ان امبراطوراً من اسرة هوهنزلورن كائناً من كان يبعدهُ عن كرسي الحكم وقد قضى ثلاثين سنة في خدمة بلاده وامبراطوره

فلما انتخب دومر بدا الناس الذين يرقبون فرنسا كأن فرصة سانحة لخدمة قضية السلم قد ضاعت . وكأن فرنسا قد خذلت « رسل السلام » فيها

على ان بريان لم يستقبل من منصبهِ كوزير للخارجية على اثر ظهور نتيجة الانتخاب ، لانه كان ينوي ان يذهب الى جنيف ليقرّع الالمان ، اخذاً بالثأر . لانه لو لم تعلن المانيا معاهدتها الجركية مع النمسا قبيل انتخابات الرآسة الفرنسية لما تألب عليهِ اعداؤه هذا التألب . فاعلان هذه المعاهدة جاء خذلاناً لسياسة السلام التي جرى عليها ودعا اليها . فذهب الى جنيف وقضى على تلك المعاهدة وعاد الى باريس عود الظافر لكي يستقيل من منصبهِ ، ثم يتقدم في الانتخابات التالية ويخرج منها لابساً اكليل النصر . كانت الامة الفرنسية تتوقع منهُ هذا : فاتفق زعماء احزاب اليسار على الدائرة التي يتقدم فيها للانتخاب . ولكنهُ غير رأيه فجأة ، وبين مساء الجمعة ومساء الاحد قرر ان يبقى في وزارة الخارجية فما حدث ؟

ذلك انهُ قبل الانتخاب لرآسة الجمهورية جاء الشيخ دومر — وكان احد المرشحين للمنصب — الى صديقهِ القديم بريان ، وسألهُ صراحة ان ينبئهُ عن موقفهِ في الانتخاب ، فاذا عزم بريان ان يتقدم للانتخاب تنحّى عنهُ دومر . فأنبأهُ بريان بالحقيقة — وكان حينئذٍ مصمماً على رفض التقدم للانتخاب . فلما غيّر رأيهُ وضع صديقهُ في موقف حرج ، لم يلبث ان ازداد حراجة بعد فوز دومر وخذل بريان . على ان الرئيس الجديد ، استدعى وزير خارجيتهِ ، ومن دون ان يشير الى حديثهما السابق قال لهُ « والآن يجب ألاّ تتخلى عني » . فقبل بريان ذلك مرغماً لان قبولهُ هذا عنى الاشتراك مع ألدّ خصومهِ في وزارة يرأسها لاقال وكيل وزارتهِ سابقاً